أشعار بيرم التونسى
فى جامعة ميونيخ منذ الأربعينيات

بقلم: د/ يسرى العزب

بيرم هو الزجال الوحيد الذى أعطاه النقاد والجمهور لقب شاعر الشعب منذ بداياته، هذا اللقب الذى لم يمنح لزجال آخر سواء كان معاصراً له أو تالياً عليه، لأنه الوحيد الذى يعرف معنى شعرية الكلمة حتى لو جاءت فى إطار تقليدى، وقد أدرك أسرار اللغة العربية الفصحى واللغة العربية العامية، ونجح فى خلق لغة جديدة تتضافر فيها الفصحى بالعامية، كما امتزج فى أشعاره أكثر من إيقاع موسيقى دون نشاز أو خلل.

فقد كان لديه ثراء موسيقى غير عادى، بالإضافة إلى أنه نجح فى إحياء المأثور الشعبى وتوظيفه فى قصائده.

وعن علاقة بيرم التونسى بالأجيال التالية عليه من الشعراء..

لقد شجع كلاً من فؤاد حداد وصلاح جاهين تلميذيه الحميمين على كتابة شعرهما بالتفعيلة، بل حاول أن يقلدهما فى تسع من قصائده كى يرضيهما، ويثبت لهما أنه ليس ضد الشعر التفعيلى.. كما قام بمساعدة صلاح جاهين فى كتابة أوبريت بعنوان «بنت السلطان» والذى عرض عام ١٩٦٢ على مسرح العرائس، وقد كاد هذا العرض أن يلغى، بسبب إصرار بيرم على أن يكتب اسم صلاح جاهين قبل اسمه، وإصرار جاهين على العكس.

ما تركه لنا بيرم يحتاج إلى عشرات الدارسين، كى يقوموا بدراسة هذا المنجز الثرى الذى تركه لنا.

لأنه كما قال عنه العقاد فى حفل تأبينه عام ١٩٦١ «عبقرية يضن أن يجود الزمان بمثلها».

فقد كان بيرم متعدد المواهب، لأنه كتب الزجل والشعر الفصيح والمقامات والأوبريت والمسرحية والرواية، وربما تكون كتابته للرواية غير معروفة، ولكنه كتب رواية بالعامية المصرية، وكانت من أوائل النصوص الروائية التى تكتب بالعامية، وكانت من جزءين وهى «السيد ومراته فى باريس» و«السيد ومراته فى مصر».. وكان فى كل هذه الأنواع متميزاً.

وقد تفرغت أنا لدراسة أزجاله فى رسالتى للماجستير، والتى طُبعت بعد ذلك فى هيئة الكتاب، وكانت أسرع رسالة تخرج من مطابع الدولة، بفضل المرحوم صلاح عبدالصبور، الذى كان يحثنى على الانتهاء من الرسالة، ومات يوم أن استلم أول نسخة تخرج من المطبعة يوم ١٢ أغسطس عام ١٩٨٢.

وحول نفيه إلى الخارج بسبب أشعاره السياسية، فإن بيرم هو الشاعر الوحيد، الذى عوقب عقاباً حقيقيّاً وقاسياً بسبب إبداعه، فقد ظل لمدة ١٨ عاماً فى المنفى وتحديداً من ١٩٢٠ وحتى ١٩٣٨ وعاش فى أسوأ الظروف، وامتهن أقل المهن وأوضعها لدرجة أنه أصيب بالربو وضعف البصر، وكاد أن يفقد بصره تماماً لولا أنه أجرى عملية جراحية فى عينيه فى سوريا، وكان يرسل بقصائده من باريس كى تنشر فى مصر، حتى يستطيع أن ينفق على أسرته، ولكن بعض الناس كانوا يأخذون المقابل المادى لهذه القصائد، ولا يعطونه لأهله.

ولكن الشاعر أحمد زكى أبو شادى، كان يقف إلى جواره ومتعاطفاً معه

وكان ينشر له فى مجلة «أبوللو» رغم أنها مجلة معنية بالفصحى أساساً، وحاول أن يستخرج قراراً بالعفو عنه، وكلما كان يسافر إلى باريس كان يذهب لزيارة بيرم، وقد كان أحمد شوقى يزوره أيضاً كلما سافر إلى باريس.

وعن علاقة بيرم بشوقى، بعد أن قال عنه شوقى «لا أخشى على الفصحى إلا من بيرم».. «لم يكن هناك عداء بينهما، وما قاله شوقى كان مجرد مداعبة بين صديقين» وقد قال بيرم مداعباً وقتئذ: «يا أمير الشعراء غيرك فى الزجل يبقى أميرك»..

وبالتأكيد كان بيرم وراء الأغانى العامية التى كتبها شوقى، لأنه كان يتمنى أن يكتب أغنية حلوة مثل التى يكتبها بيرم.

وأنا قدمت بحثاً عن شوقى أكدت فيه أن أهم تجديداته فى الشعر العربى، هو إسهامه فى إثراء المسرح الشعرى، وتميز ما كتب من أغنيات بالعامية.

وعن مدى استفادة بيرم، من ارتباطه بأم كلثوم التى غنت له عدداً من الأغنيات، لم يكن بيرم محتاجاً للنجومية، فمنذ كان عمره ٢٠ عاماً وهو مشهور، فمنذ أن نشر قصيدته «المجلس البلدى» وهو معروف للجمهور الذى حفظ القصيدة، مما اضطر الجريدة التى نشرتها إلى إعادة نشرها فى العدد التالى نتيجة الإقبال عليها، ولكن ارتباطه بأم كلثوم جعل فى استطاعته أن يجمع بعض الأموال لأولاده.

وللعلم فإن بيرم هو الذى سعى للصلح بين الشيخ زكريا أحمد وأم كلثوم، وقدم لهما أغنية «هو صحيح الهوى غلاب» كهدية تصالح، ولكنه مات قبل أن يسمعها، وغنتها أم كلثوم فى حفلتها الشهرية التى وافقت ذكرى أربعينية بيرم.

وللعلم فإن أكبر عائد من جمعية المؤلفين والملحنين فى باريس للأغانى

الأكثر تردداً من مصر، هى أغانى بيرم مع أم كلثوم، وما يأتى من باريس لأحفاد بيرم، أكبر مما يأتى لأى شاعر آخر.

وعن مدى تقدير الدولة بالنسبة لبيرم، فعندما اكتشف الرئيس عبدالناصر أن بيرم ليس معه أى جنسية، أعطى له الجنسية المصرية عام ١٩٥٤، كما منحه أعلى وسام فى الدولة عام ١٩٦٠ قبل أن تستحدث جوائز الدولة.

وقد أصبح بيرم أكثر شهرة بعد رحيله، ويمكنك أن تجد صدى لأشعاره، فى قصائد الشعراء الحقيقيين ممن جاءوا من بعده.

وحول ما يحتاجه منا شعر بيرم قال د/ يسرى العزب:

إن شعر بيرم يحتاج إلى تأمل وبحث دائمين، كما يجب أن يحتل ماتركه لنا من أشعار وأزجال، مكانها الذى يليق بها فى المكتبات العربية كلها، ومكتبات الجامعات بصفة خاصة.

وأريد أن أُذَكِّر من يهمهم الأمر، بأن جامعة ميونيخ تدرس لطلابها منذ الأربعينيات وحتى الآن نصوص بيرم التونسى فى قسم المصريات حتى يتمكنوا من معرفة شخصية المواطن المصرى الذى بنى الآثار العظيمة.

■■■